الجزء ١٢ المجلد ١٠

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : كانون الاول سنة ١٩٣٠ م الموافق رجب وشعبان سنة ١٣٤٩ هـ

وليمة ابن واسانة

- ٢ -

فأول ما افتتح به ابن واسانة قصيدته وصفه للصيبة التي نزلت به من جراء هذه الوليمة فقال :

(من لعين تجود بالهملان ولقلب مدأمه حيران)
(يا خليليّ اقصرا عن ملامي وارثيالي من نكبتي وارحماني)
(من عذيري من دعوة اوهنت عظمي وهدّت بهولها أركاني)

ثم وصف كيف احتشد الناس على اختلاف أجناسهم من اجل الدعوة فقال :

(ضرب البوق في دمشق ونادوا لشقائي في سائر البلدان)
(النفيرَ النفيرَ بالخيل والرَجْـ ـلِ الى بيت ذا الفتى الواساني)
(جمعوا لي الجموع من جيل جيلا نَ وفرغانة ومن ديلمان)
(ومن الروم والصقالب والتر ك وخلقاً من بُلْغَر والّلان)
(ومن الهند والطماطم والبَرْ بر والكيلجوج والبيلقان)
(لم يخلّوا ممن عددت من الآ فاق من مسلم ولا نصراني)
(والبوادي من الحجاز الى نجْـ ـد معَدّيها مع القحطاني)

هذه الأبيات تتضمن درساً في الجغرافيا . و (الكيلجوج) يبحث عنه فلم اهتد الى معرفته فلعل الكلمة محرفة . واما (اللان) فهي كورة بين ارمينية و بحر الخزر . و (البيلقان) بزيادة ياء بعد الباء اسم مدينتين ذكرهما المقدسي في جغرافيته (أحسن التقاسيم) احداهما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ارمينية والأخرى في آذربيجان . و (بلغار) هي مدينة الصقالبة الواقعة في اقصى الشمال من بلاد الروسية يذكرها فقهاء الاسلام في كتبهم عند ذكر أوقات الصلاة وتحديدها : فان الشمس لا تكاد تغرب في (بلغار) حتى تشرق بعد اقل من ساعة . فهل يصلي مسلموا تلك البلاد صلاة العشاء او هي قد سقطت عنهم بسقوط وقتها — خلاف بين الفقهاء . وربما سميت بلغار البلقان بلغاراً لنزول مهاجرين من بلغار الصقالبة فيها فسموها باسم بلادهم الاصلية .

وبعد ان وصف (ابن واسانة) المدعوين من جهة أجناسهم عاد فوصفهم من جهة عاهاتهم وعيوب خلقتهم فقال :

(كل شكلٍ : فمن طوالٍ ومن حدْ ب قصارٍ والحول والعوران)
(وشيوخ مثل الفراخ وشبّا نٍ رحاب الأشداق والمصران)
(مِعَدٌ جُوّعت ثلاثين يوماً بسلاح الأضراس والأسنان)

ثم وصف زمن رحيلهم وتعجيلهم بالقدوم اليه فقال :

(رحلوا من بيوتهم ليلة المرْ فعِ من أجل أكلةٍ مجّان)
(يركضون البريد تسعة أميا لٍ بنصّ الوجيف والزَمَلان)

(الوجيف) و (الزَمَلان) نوعان من السير السريع و (البريد) دواب البريد فالضيوف كانوا يشبهونها في السرعة . وقد نبهنا صديقنا الاستاذ فارس بك الخوري الى نكتة لطيفة : ذلك ان الشاعر بذكره (ليلة المرفع) كأنه يعجّب الناس من النصارى الذين تركوا ليلة مرفعهم وهي مقدمة لعيدهم الكبير وأسرعوا الى الوليمة شرهاً او عيثاً في طعام ابن واسانة .

ثم وصف وصولهم وشروعهم في التفتيش عما هيّأ لهم ليطمئن قلبهم فقال :

(لستُ أنسى مصيبتي يوم جاؤو في وفد غصّ منهمو الواديان)
(أشرفوا لي على زروعٍ وأحطا ب وبيت من خبزه ملآن)
(لبنٍ فارس ولحمٍ طريٍّ وقدور تغلي على الدّيكدان)
(وشواءٍ من الجداء ومعلو فٍ دجاج وفائق الحملان)
(وشراب ألذّ من زورة المعْ شوق بعد الصدود والهجران)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قوله (وقدور تغلي على الديكدان) في (اليتيمة) (الداد كان) وفي (معجم البلدان) (الدار كان) بالراء وهما خطأ والصواب (الديكدان) كما قلنا وهي كلمة فارسية مركبة من (دبك) بمعنى قدر و (دان) أداة ظرفية مثل (دان) في شمعدان ومعنى (الديكدان) المنصب الحديدي الذي يوضع عليه القدر على النار . وقد لفظها (ابن واسانة) باصلها الفارسي (ديكدان) بالكاف ومثله المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) الذي ألفه سنة (٣٧٥ هـ) وهو معاصر لابن واسانة فقد قال في ص ٣٦٤ من طبعة اوربا في صفة سد يأجوج ومأجوج : « وفي احد الحصنين آلات البناء التي بني بها السد من قدور الحديد والمغارف على كل ديكدان اربع قدور مثل قدور الصابون » . هكذا لفظها ابن واسانة والمقدسي . اما علماء اللغة فقد كتبوها في معاجمهم بالقاف هكذا : (دقدان) لتكون على وزن من الأوزان العربية (فعلال : شملال) ولا يوجد في اللغة وزن (فيعلال) قال صاحب القاموس (والعُنَّة دقدان القدر) اي ان معنى كلمة (العُنَّة) عند العرب هو الدقدان الذي توضع عليه القِدْر .

واختلاف الأدباء واللغويين في لفظ (ديكدان) او (دقدان) راجع الى الخلاف بين سيبويه والجوهري : فالأخير اشترط في تعريب الكلمة ان تكون على أوزان العرب وسيبويه أحسن الله اليه لم يشترط هذا الشرط المتعب المُنْصب .

ثم وصف ابن واسانة احد المدعوين الذي سماه الهاشمي وئرهة العجيب فقال :

(يقدم القوم هاشميٌّ هربت الشـ ـدق رحب الملعى طويل اللسان)
(هو نمس الدجاج والبط والوزّ وذئب النعاج والخرفان)

و يظهر ان هذا الهاشمي هو غير الشريف ابي القاسم واخيه الفضل اللذين يقول فيهما :

(والشريفان أشرفا في خلال الـ ـخيل في موكب من الحبشان)
(فابو القاسم الكبير على طـ ـرف كميت أقبّ كالسرحان)
(واخوه الصغير يعترض الخيـ ـلَ على قارح عريض الأبان)
(وهما يهويان بالسوط والرّجـ ـل الى ما يسوء في مسرعات)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكأن قائلاً يقول له : ولماذا إذن لا تشتمها ؟ فأجاب :

(أيُّ قلبٍ يُطيق شتم بني خيـ ـر البرايا واكرم النسوان)
(غير اني يوم القيامة اشكو هم الى الحرة الحَصان الرَّزان)
(وأُنادي يا بنت خير النبيين و يا أم أكرم الفتيان)
(اي شيءٍ صنعتُ بابنيك حتى غزواني بالسود والبيضان)

ثم جاء الدور للشمولي فوصفه قائلا :

(والشموليُّ حالقـه حلق نرّا سِ عريض الاكتاف عبل[1] اليدان)
(لست أنساه جاثياً جاحظ العيـ ـن عبوساً في صورة الغضبان)
(كالعُقاب الغرثان يقتنص اللحـ ـمَ و يهوي الى طيور الخوان)

ووصف أديباً وآخر كاتباً كانا من جملة الضيوف فقال :

(والأديب الذي كنت اعتدُّ غزرا في اللحين فيمن غزاني)
(وكذا الكاتب الذي كان جاري وصديقي ومشتكى أحزاني)
(غيَّرته الايام حتى أتاني جائعاً للشقاء مذ سنتان)
(كلما شقَّق الفراريج شقَّقْـ ـتُ لغيظي من فعله قصاني)
(وهو في امره مجدٌّ رخيُّ البـ ـال لم يعنه الذي قد عناني)
(مُجزَهِدٌ[2] كالسوس في الصوف في الصيـ ـف بقلب خالٍ من الإيمان)

ثم خاطب ابن المبشر فقال :

(قلت قل لي يا ابن المبشر ما شأ نك من بين من غزاني وشاني)
(ليس هذا من شهوة الاكل هذا من لهيب البغضاء والشنآن)

وكان في المدعوين مدعوٌّ سماه (الفيلسوف) وهل هو فيلسوف حقاً او انه يتهكَّم به تهكماً وصفه فقال :

---

(١) قوله عبل اليدان بالالف بدل الياء وارد على لغة من يلزم المثنى الالف كقوله :

(ان اباها وابا اباها قد بلغا في المجد غايتاها)

(٢) اي مسرع مجد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(قلت للفيلسوف لما غدا في الأ كل يغزو كعنتر الشجعان)
(ليت شعري أمن رسائل بقرا ـ طِ نفلست او بني يونان)

ثم حمل حملةً شديدة على احد المدعوين فوصفه باقبح الأوصاف من دون ان يسميه فقال :

(ان من أعظم المصائب يا قو م بلائي بذلك الطرمذان)

(الطرمذان) هو الذي يقول ولا يفعل ويمدح نفسه بالباطل وهذه الكلمة تصلح ان تقوم مقام كلمة (شارلاتان) الافرنسية . واذا اعترض علينا بان كلمة (الطرمذان) ثقيلة فنقول ان الذي يمدح نفسه بالباطل ثقيل ايضاً والثقيل الممقوت جدير بكلمة ثقيلة مثله .

ثم وصف الشاعر ذلك الطرمذان فقال :

(رجل كالفنيق[1] فدمٌ بلا لـ بٍّ طويل في صورة الشيطان)
(بقفا كالعمود يستعذبُ الصَّفْـ ـعَ ورأس أصمّ كالسندان)
(واسع الحلق ناقص العقل والدي ـ ـن غليظ الطباع كالصوان)
(يبلع المجنـات بلعاً بلا مضـ ـغٍ ويحسو النبيذ كالثعبان)
(لا تمنني يا ربّ حتى أراه قد تدلى وعنقه شبران)

هذا دعاء عليه بالشنق لان المشنوق هو الذي يتدلى وتطول عنقه .

و يظهر ان الضيوف صحبوا زامراً ومغنياً لا يحسنان العزف فقال يهجوهما :

(وأتوني بزامرٍ زمره يحكـي حُباقَ العبيد والرعيان)

و (الحباق) له معنى لا يناسب التصريح به فليراجعه طلابنا النجباء في كتب اللغة .

(ومغنٍّ غناؤه يطلق البطـ ـنَ ويأتي بالقيء والغثيان)

ثم ان الشاعر هجا ضيوفه صفقةً واحدة فقال :

(قصدت هذه الطوائف جمرا يا لهتكي وذلتي وامتهاني)
(قلتُ ماشأنكم ؟ فقالوا أغثنا ما طعمنا الطعام منذ ثمان)

(١) الفنيق الفحل من الابل والفدم الاحمق البليد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(وأناخوا بنـا فيا لك من يو م عبوس عصبصب أرونان)

(عصبصب أرونان) اي صعب شديد . واستعمال (ابن واسانة) لكلمات اللغة يدل على انه راسخ في اللغة العربية خبير بفصيحها وغريبها .

(تركوني يا قوم أجردَ من فرْ خٍ وأعرى ظهراً من الأفعوان)

(أكلوا لي من الجداء ثلاثيـ ـ ـن حنيـذاً بالخلّ والزعفران)

(الحنيذ) الجدي المشوي .

(اكلوا ضعفَهـا شواءً وضعفيـ ـ ـها طبيخاً من سائر الألوان)

(اكلوا لي نبّالةً تبّلت عَقْـ ـلي بعشر من الدجاج سمان)

لعل النبالة هي ما نسميه اليوم متبّل .

(اكلوا لي مضيرةً ضاعفت ضعـ ـفي بلحم الدجاج والجديان)

(المضيرة) عند العرب لبن حامض يطبخ باللحم فلعلها ما نسميه اليوم لبنية او اللبنيـة يكون فيها أرز عادةً والمضيرة لا أرز فيها فهي إذن الشاكرية .

(اكلوالي كشكية كشكشت قلـ ـبي وهاجت لفقدها أشجاني)

والكشكية هي الكشكة نفسها في الراجح .

(اكلوا لي سبعين حوتاً من النهـ ـر طرياً من أعظم الحيتان)

يظهر ان محصول (بردى) من السمك منذ الف سنة كان اكثر منه الآن .

(اكلوا لي من القريشاء والبرْ نيّ والمعقليّ والصرفان)

لعل (القريشاء) هي ما نسميه اليوم قريشة وهي ضرب من الجبن المملّح يكون متفتتاً غير متماسك و (البرنيّ) أجود التمر . اما (المعقلي) و (الصرفان) فلم اعرفهما .

(اكلوا لي من الكوامخ والجوْ ز معاً والخلاط والأجبان)

(الكوامخ) المشهيات من الاطعمة و (الخلاط) عند الدماشقة اليوم ضرب من المشهيات ايضاً يتخذ من الشوندر واباز ير أخرى .

(ومن البيض والمخلّل ما تهـ ـجز عن جمعه قرى حوران)

(بذّروا لي من السفرجل والنفـ ـاح والرازقيّ والرمان)

(والرياحين ما رهنت عليه جبتي عند احمد الفاكهاني)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(الرازقي) و يسمي الملاحي (بالتخفيف والتشديد) ضرب من العنب ابيض طو يل الحب ولعله المسمى اليوم (ز ينى) .

وهنا إشكال : وهو ان الوليمة كانت في عيد المرافع وهذا العيد يكون في آخر الشتاء عادة فكيف وجد السفرجل والتفاح والعنب في جمرايا في ذلك الوقت . اما الرمان فيمكن خزنه الى ايام الشتاء . او لعلّ الذي اكلوه معقود التفاح والسفرجل وزبيب العنب لا هي نفسها :

(ذبحوا لي بالرُغم يا معشر النا س ثمانين من معيز وضانْ)
(ما كفاهم تذبيحهم غنم القر بة حتى أنحوا على الثيرانْ)
(ذبحوها والدمع يجري على خـ ـدّي انسياباً مثل انسياب الجمان)
(اكلوا كلّ ما حوته يميني وشمالي وما حوى جيراني)
(ثم قالوا : هلمّ شيئاً فنادي ـ ـتُ غلامي : قم ويك خبيءُ حصاني)

ولكن هل سكت الضيوف عن مضيفهم الذي سبهم كل هذا السبّ ؟ كلاّ بل كالوا له بالكيل الذي كال لهم وأزيد . وقد وصف ذلك فقال :

(فتمالوا عليّ شتماً ولعنـاً واستباحوا عرضي بكل لساني)
(من له قدرة على الهجو يهجو ني ومن كان مفحماً يلحاني)

وبعد ان فرغوا من الطعام والالتهام صدرت عنهم أعمال ممقوتة لا تليق بالكرام وقد وصفها بقوله :

(ثم لما أتوا على كل شيءٍ ختموا محنتي بكسر الاواني)
(ثم قاموا الى الجلاهق والبا شق والاحابيل والزَربطان)

يعني انهم قاموا الى صيد ما في القرية من الطيور ليأكلوها فوق ما اكلوا .

و (الجلاهن) بندق من طين يرمى به الطير و (الأحابيل) الشباك و (الزَرْبَطان والزربطانة) حرّفها عوام زمانهم عن (زَبَطانة) وهي قناة جوفاء كالقصبة توضع فيها سهام صغار ينفخونها نفخاً في صيد الطيور فلا تكاد تخطيء . ومازالت الزربطانة والجُلاهق في خدمة الانسان حتى خلفتهما البندقية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(فرأيت الحمام بعضاً على الأر ض وبعضاً ملقىً على الاغصان)
(ورأيت الدجاج في وسط القر يةِ مُعْيِيَ مكسَّر السيقان)

ثم وصف تنظيفهم لأيديهم من دسم الطعام فقال :

(اكلوا ما ذكرت ثم أضاعوا يا شقائي حملاً من الأُشنان)
(ومن المحلب المطيَّب بالبا ن وماء الكافور سبعَ براني)

ذكر الأشنان ولم يذكر الصابون مع انه كان في زمنهم . لكنه ذكر مكانه منظفاً آخر لا عهد لنا به . وهو المحلب المطيَّب بالكافور و باللبان . واللبان اسم شجر ورقه كورق الصفصاف فهل هو منظف مطيب يا ترى ؟ او المراد باللبان بخور الحصى لبان ؟ وقد قال انهم استعملوا من هذا المحلب المطيب سبعَ براني اي سبع قدور من خزف .

ثم عاد الشاعر فذكر من تخريبهم وعيثهم وعربدتهم مالا يكاد يصدق فقال :

(وأقاموا سُوَاسهم والمُكارِ يـ ـن الى ان سمعت صوت الأذان)
(ينقلون الاحطاب من حيث وافو ها : فبالفأس ضاع لي غيضتان)
(جوزةٌ كان حملها أحسن الحمْـ ـل وكانت ظليلة الأفنان)
(كان لي في فنائها منزل رَحْـ ـبٌ أنيق يحفه نهران)
(ورياض مثل البرود علاها الـ ـطلُّ بين البهار والأقحوان)
(وطيور ما بينها تتغنى بجميع اللغات والألحان)
(هي كهفي ومستظلي من الحَـ ـرّ وذخري لنائبات الزمان)
(أحرقوها يا قوم ظلماً فكانوا يرشقون الأحطاب بالنيران)
(كسروا السكر فاختُلطتْ فقالوا كيف تبقى بغير شاذروان)
(قطعوا اللوز والسفرجل قضبا ناً ومالوا بها على غلماني)
(والنواطيرَ مددوا وعلوهم حنقاً بالعصيّ والقضبان)

ثم ذكر ان ضيوفه أخشوا في مطالبهم : فقد اقترحوا عليه ان يأتيهم بصبيان القرية ونسائها كي يقوموا بخدمة خصوصية فطار عقل شاعرنا الواساني وصرخ في وجوههم قائلاً ما بقي على جمرايا الا ان تقدم لكم هذه الخدمة المغشوشة ونظم في ذلك أبياتاً رأينا ان نضرب صفحاً عن ذكرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم عاد القوم الى عربدتهم وإفسادهم في القرية فقال في حكاية ذلك :

(ثم راحوا بعد العشاء الى دا ري فلم يتركوا سوى الحيطان)
(كان لي مقعدٌ وفرش مليح فوقه مطرح من الميساني)

(المطرح) المفرش ونقول اليوم (طراحة) والميساني نوع من الثياب يصنع في ميسان وهي كورة بين البصرة وواسط .

(وبساط من أحسن البسط مذخو رٌ لعرسٍ او دعوةٍ او ختان)
(غرقوه بالبصق والبول والقيـ ـئ فأضحى وسعره بعرتان)
(سرقوا جبتي وسيفي وسكيـ ـني وخفي وجوربيَّ وراني)

(الران) شبه الطماقات التي تصان بها الساقان وتكون من جلد غالباً . وقد قرر المجمع العلمي استعمال الران مكان كلمة (الطماقات) التركية في ما قرر من الألفاظ .

(أوقدوا زيتنا جزافاً بلا كيـ ـلٍ يكيلونه ولا ميزان)
(خلتْ داري ياإخوتي الجامع الامـ ـويّ ليلاً بالنصف من رمضان)

وبعد هذا التعب كله أما أخذ القوم لانفسهم راحة ؟ قال :

(ثم لما انتهت بهم شدة البطـ ـنة خرّوا صرعى على الاذقان)
(هوّموا ساعةً كتهويمة الخا ئف في غير ارضه الفزعان)

(الفزعان) الخائف ونحن اليوم نستعمل هذه الكلمة وهي غير قاموسية اي غير موجودة في قواميس اللغة وانما الموجود فيها رجل فَزِع وفازع . فهل يصح لنا ان نستعمل كلمة فزعان استناداً الى استعمال الشاعر الواساني لها ؟ مسألة تحت الدرس في المجمع العلمي .

ثم وصف الشاعر ما كان من ضيوفه بعد ان هبوا من نومهم يطلبون طعام الصبحية فقال :

(ثم قاموا ليلاً وقد طلع النجـ ـمُ ومال السماك والفرقدان)
(يصرخون الصبوح ياصاحب البيـ ـت فأبكوا عيني وراعوا جناني)
(محبوني من عُقر داري على وجـ ـهي كأني أدعى الى السلطان)
(بقلوبٍ أشدّ حراً من الجمـ ـر وأقسى من صخرةٍ صوّان)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و يظهر ان صنيعهم هذا أفزع نسوة بيته ولا سيما ابنه الصغير (ميمون) فاستعطفهم عليه قائلاً :

(قلت : رفقوا لذلك الطفل ميـ ـ ـونٍ ولا تيتموه يا إخواني)
(ما لنفي اكلة بقتل غريب ذي عيال ناءٍ عن الاوطان)

ثم ذكر من سوء صنيعهم به ما لا يكاد يصدق فقال :

(عاقوني بفرد رجلٍ الى السقـ ـف وعُذّبت ليلتي بالدخان)
(لو رآني ابي وأمي معكو سًا ورجلاي بالعصا تنقران)
(بكيا رحمةً وفكّا وثاقي من يديهم بكل ما يملكان)

ولما رأى الشاعر ما حاق به من البلاء استغاث بالشريفين فقال :

(قلت للفضل والشريف اغيثا ني . وموتي قد حلّ بي خاصاني)
(واذكرا عشرتي وودّي واخلا صي وحنّا علي واستبقياني)
(أنتما انْ قتلتماني وحق اللـ ـه من أجل اكلة لندمان)
(أشهد الله ليس عندي مشرو ب ولا في خزانتي لقمتان)
(فاستشاطا غيظاً عليّ وقال الـ فضل قل لي بأيّ عين تراني)
(أنا من أحمق البرية ان صـد قتُ ما تأتليه من أيمان)

ثم رقّ له الفضل وخلصه من الشنق ولكن على هذه الصورة المزعجة :

(قطع الحبل فانقلبت على رأ سي وظهري واندق لي ضلعان)

وبعد ان يئس المدعوون من طعام الصبوح شفوا قلبهم بنهب التبن فقال واصفاً ذلك :

(ثم لما تمكّن اليأس خلو ني ومالوا ميلاً على الاتبان)
(وأجيري مسخر ينقل الأتـ ـبانَ بالذل عاريَ الجثمان)
(وهو يبكي . فقلت ويحك إما تصـ ـنع بالتبن بعد موتة الفدان)

وهل اكتفوا بالتبن ؟ كلا بل .

(سرقوا السُرُج والقناديل والزيـ ـت وأقداحنا وكل القناني)
(لو ترى الفضل وهو يحمل في السرَ ج قميصاً مربط الأردان)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(قد حشاه لحماً وطيراً وسبعيـ ـن رغيفاً من اكبر الرغفان)

كل هذا صنعه ضيوفك بك يا ابن واسانة . ولكن اما كان يوجد فيهم من يرحمك و يعطف عليك ؟ فأجاب .

(ما رثى لي سوى المبارك من ضُرّ ـ ـي وذاك القُصيّر الدحداني)

(رفّهاني وخفّفا الثقل عني فهما من ملامتي سالمان)

لم أجد في كتب اللغة (الدحدحاني) بمعنى القصير كما استعملها الشاعر هنا . نعم وجدت : الدودح والدحدح والدحدحة والدحداح والدحداحة والدحادح والدحُيدحة — كل ذلك بمعنى القصير . فكلمة (الدحدحاني) مما ولده الشاعر الواساني . او ان كلمة الدحدحاني محرفة عن (الرحرحان) برائين وهو من الاشياء الواسع المنبسط القريب القعر : يقال قدح رحرحان اي قريب القعر مع سعة فيه .

ثم ان صاحب الوليمة ختم قصيدته بالسؤال من حضراتكم أيها السادة قائلاً :

(هل سمعتم فيما سمعتم بانسا نٍ عراه في دعوة ماعراني)

كلاّ والله ! فان ضيوفاً يشنقون مضيفهم الى السقف ثم ينقرون رجليه بالعصا — أمر لم نسمع بمثله الا عن ضيوفك .

جمرايا اليوم

هذا ختام الكلام على وليمة ابن واسانة التي أولمها في قرية جمرايا منذ الف سنة وقد استنتجنا من القصيدة ان جمرايا كانت في ذلك العهد على جانب من العمران وتوفر أسباب الرزق . اما اليوم فهل هي كذلك ؟ كلاّ ! وانما أصبحت مزرعة صغيرة أضيفت معظم أراضيها الى قرية (الهامة) وغطّى اسم الهامة على اسمها . فنسيها اهل دمشق حتى بنى الاستاذ الخطيب داره فيها كما قلنا . فأخذ اسم (جمرايا) من يومئذ يدور على الأفواه وجعل معارف الاستاذ واصدقاؤه يقولون ذهب الشيخ الى جمرايا . وعاد من جمرايا . و بات في جمرايا .

ثم درى الاستاذ الخطيب اني أهيئ محاضرة في هذا الموضوع أريد القاءها في ردهة المجمع فقال لي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما وقد عزمت على إحياء ذكر (جمرايا) فإني انا ايضاً أريد ان أحيي ذكر وليمة ابن واسانة ·

ففي ضحى يوم الثلاثاء الواقع في ١٦ تشرين الاول من هذه السنة (١٩٢٨ م) كانت السيارة تجري بي مع صاحبي المعالي وزيري المعارف والمالية الى (الربوة) (فدمر) (فالهامة) ثم عاجت بنا من جهة اليمين نحو جمرايا فتسللت اليها من طريق ضيق متمعّج غير معبّد ولا صالح لسير السيارات ، حتى وصلنا الى نهر بردى واذا عليه جسر جديد بني منذ بضع سنوات ·

ثم جرى بنا الاتومبيل صُعُداً في سفح هضبة · واذا دار تلوح لنا من بعيد · واذا بياضها الناصع يتلألؤ في خضرة تلك الرياض كقطعة ماس على بساط زبرجد · واذا هي دار الاستاذ الخطيب ، واذا هو يستقبلنا ببشاشته وأُنسه المعهودين ، واذا لديه طائفة من أعيان دمشق ، واذا وليمة ابن واسانة تجددت بعد الف سنة من الزمان (وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون) وهكذا كانت لنا في دار الاستاذ الخطيب · وليمة ذات رفاغية وعيش خصيب · كان الاستاذ ابن واسانها لكن من دون تبرم بالضيوف · وكان ضيوفه ضيوف ابن واسانة ولكن من دون عربدة ولا إفساد ، ولا تكاليف سمجة دونها خرط القتاد ·

قرية (جمرايا) اليوم أيها السادة ارض ضيقة يحدها الطرف ، وتقتحمها العين ، فناة الفيجة تسيل من فوقها ، ونهر بردى يجري من تحتها ، معظم أشجارها الزيتون وقد امتازت بمحصولها من الزيت الجيد ، وفيها بضعة بيوت لفلاحيها ، وتجري فيها بعض العيون : منها عين القريبة وعين الشاعر · ولقد تجولت في جنباتها مستطلعاً طلع آثارها القديمة · فدلّوني على قناة محفورة في الصخر في سفح هضبتها · فاذا سعة فم القناة نحو متر · ولم يبق من تلك القناة الا بقية · ومن آثار القرية قساطل خزف كان يجري فيها الماء كالقساطل المعهودة عندنا · وفوق القساطل على سمك نحو ذراع ارض مبلّطة وبلاطها مرصوف بالفسيفساء وهي أحجار صغيرة كقطع أحجار زهر الطاولة من حيث الحجم والشكل رُصف بعضها الى بعض · ثم على طول الزمان تراكمت الأتربة على الفسيفساء فأصبحت أرضاً زراعية غرست فيها أشجار الزيتون · ويقول فلاحوا (جمرايا) نقلاً عن آبائهم ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القساطل والفسيفساء هما بقية آثار حمام كان مشيداً في هذا المكان . وقالوا ايضاً ان عين الشاعر الموجودة في قريتهم سميت باسم شاعر كان يأوي اليها و يذكرها في أشعاره . هذا كل ما في جمرايا من الآثار القديمة . ومن قصص فلاحيها التي يتداولونها نقلاً عن أسلافهم ان قريتهم كانت في القديم ذات عمران عظيم وان احد أمراء الشام الظالمين زارها فأولم له رئيس القرية وليمة جمعت من ألوان الطعام وصنوف الفواكه ما أثار حسد ذلك الامير الجبار ولاسيما مذ عرف ان كل ما قُدّم اليه على المائدة كان من محصول القرية ومستغلاتها . فرجع الى دمشق وأخذ يعمل على مصادرة مالكي جمرايا واستصفاء اراضيها . ولو كان في زماننا لقال : انما فعل ذلك (باسم المصلحة العامة) ومن يومئذ اخذت القرية تتدرّج الى هوّة التعاسة والخراب . وجعل أهلها يرحلون عنها الى القرى المجاورة فتعمر وتخرب هي . ثم لم تقم لها منذ ذلك الحين قائمة .

هذا ما يتحدث به فلاحوا جمرايا اليوم . و يغلب على الظن ان هذه القصة ليست سوى صدى ما كانوا يسمعونه من أخبار وليمة ابن واسانة المدوّنة في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي . فان القدماء من أدباء دمشق كانوا يزورون جمرايا ويتحدثون — على مسمع من فلاحيها — بخبر وليمة ابن واسانة وبقصيدته التي قالها فيها . فعلقت الحادثة في أذهانهم وانتقلت الى أولادهم وأحفادهم على هذا الشكل المحرّف .

اما عين الشاعر فلا يبعد ان يكون المراد بشاعرها التي نسبت اليه هو ابن واسانة نفسه الذي كان له دار وعقار في القرية .

وبعد هذه الجولة في أرجاء جمرايا عدتُ عند الغروب الى الهضبة حيث دار الخطيب وأشرفت منها على ذلك المشهد العجيب :

هضاب ورُبى شاخصات للعيان ، شخوص نهود الحسان ، وعلى إحدى هذه الهضبات قرية الهامة ، ويتخلل تلك الهضبات بساتين قرى الهامة والجديدة والأشرفية وغيرها من قرى الوادي . وتتراءى لك من خلال الأشجار قضبان حديد السكة متمعجة تمعج الافعى التي تجدّ في الهرب وتسعى .

(و بردى كالمُنْصل ... او صفحة السنجنجل)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم رجعت بي الذكرى الى ماقبل الف سنة وقت ان اجتمع ضيوف الواساني في دار الواساني .

وما يدر ينا ان تكون الدار حيث الدار . كما ان الهضاب هضاب والأنهار أنهار ؟ بل ان هذه الشمس التي شهدتها في أفق (جمرايا) تهوي للغروب . أليست هي نفسها التي شهدت وليمة (ابن واسانة) كما شهدت وليمة (ابن الخطيب) ؟

هاتِ أيتها الشمس حدثينا عن تلك الوليمة التي كانت منذ الف سنة ، كما ستحدثين أبناءنا بعد الف سنة عن وليمة اليوم .

قُصّي على أحفادنا اخبارنا كما قصصتِ علينا اخبار اجدادنا . صفي لابنائنا الآتين ما نحن عليه الآن ، من التفرق والخذلان ، وكلب الزمان ، وتراكم الأحزان .

قولي لهم ان أجدادكم في القرن العشرين «كانوا [1] في فقر وفاقة ، وتأخر في القوة الحربية والسياسية عن سائر الامم ، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق ، فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم ، وجهلوا احوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وعما ينفعهم وقنعوا بحياةٍ يأكلون فيها ويشربون وينامون . ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ، ولكن متى أمكن لاحدهم ان يضرّ اخاه لا يقصّرُ في إلحاق الضرر به . فجعلوا بأسهم بينهم ، والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى ، رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون في زوايا بيوتهم ، يسرحون في مرعاهم ، ثم يعودون الى مأواهم ، والامراء منهم يقطعون ازمنتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات ، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في ادائها أعمارهم ، ولا يؤدون منها شيئاً ، يصرفون اموالهم في مايقطعون به زمانهم إسرافاً وتبذيراً . نفقاتهم واسعة ، ولكن لا يدخلُ في حسابها شيءٌ يعود على ملتهم بالمنفعة ، يتخاذلون ويتنافرون وينيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية . فربّ تنافر بين اميرين يضيع أمةً كاملة . كل منهما يخذل صاحبه . ويستعدي عليه جاره . فيجد الاجنبي فيهما قوةً فانية . وضعفاً قاتلاً . فينال من بلادهما

(١) هذه الجملة من هنا الى قوله (وحفظ الحق من تعدي الاقوياء) مقتبسة من مقال (القضاء والقدر) احدى مقالات جريدة (العروة الوثقى) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مالا يكلفه عدداً ولاعدة . شملهم الخوف والذعر . وعمهم الجبن والخور . يفزعون من الهمس . و يألمون من اللمس . قعدوا عن السير الى مايلحقون به الامم في العزة والشوكة . وخالفوا في ذلك كله اوامر دينهم معرؤيتهم لجيرانهم بل الذين كانوا تحت سلطانهم . يتقدمون عليهم . و يفاخرونهم بما يعلمون ويعملون . واذا أصاب قوماً من إخوانهم مصيبة اوعدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم . ولا ينبعثون لمناصرتهم . ولا توجد فيهم جمعيات ملية ولا اخلاقية . يكون من مقاصدها إحياء الغيرة . وتنبيه الحمية . ومساعدة الضعفاء . وحفظ الحق من تعدي الأقوياء » .

هكذا أيتها الشمس قولي لأحفادنا عنا . وصفي لهم احوالنا ، حتى اذا رأيتهم قد اكفهرت وجوههم . وتقعطت من الأسى قلوبهم . عودي فارفقي بهم . و كفكفي من دمعهم . و بشريهم ايتها الشمس بنهضتنا الجديدة . التي شيدناها على العلم والاتحاد فكانت سبباً لسعادتكم انتم ايها الاحفاد . والسلام .

« المغربي »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net